المحاضرة الحادية عشرة: الموضوعات

تعد دراسة الموضوعات الأدبية والشعبية من مباحث الأدب المقارن التي حدث حولها خلاف كبير بين مدارس الأدب المقارن، وقد ظل هذا النوع من المباحث يفتقر إلى تسمية خاصة به إلى أن أطلق عليها "الألمان" اسم تاريخ الموضوعات، ثم تبعهم رواد المدرسة الفرنسية وعلى رأسهم "بول فان تيجم" الذي اقترح مقابلا فرنسيا تمثل في مصطلح "علم الموضوعات" Thematologie السائد حاليا.

1. مفهوم دراسة الموضوعات في الأدب المقارن

تتعلق دراسة الموضوعات بالبحث في الموضوع، وما يحويه من أفكار ومواد أدبية دون الاهتمام بشكل النوع الأدبي الذي تنتمي إليه، حيث إن معظم هذه الموضوعات تندرج ضمن إطار وقالب فني محدد، ذلك أن هذه النماذج تتغير خصائصها ورموزها ومعانيها مع تغير العصر وتغير الأدباء، وبما أن الأفكار تشترك فيها الأمم باعتبار أن الفكر البشري واحد، وما اللغات إلا وعاء لهذه الأفكار، فإن هذه المواضيع قد تنتقل من أدب قومي إلى أدب قومي آخر، واحتمال ترجمتها إلى عدة لغات. ومن هنا كان لزاما على الباحث المقارن أن يرصد هذه التبادلات الأدبية الخاصة بالمواضيع، وأن يكشف عن مدى انتشارها وارتباطها بخصائص الشعوب.

2. أنواع دراسات الموضوعات في الأدب المقارن

أ. دراسة الشخصيات

قد يكون الموضوع مرتبطا بشخصية ما تنتمي إلى أدب ما، بحيث يصبح ذلك الشخص رمزا لذلك الموضوع، بعد أن دخلت عليه عوامل الشهرة أو الأسطورة، ومن هذا المنطلق نلاحظ عناية مدارس الأدب المقارن بهذا النمط من الدراسات، خاصة المدرسة الإلمانية في الأدب المقارن، مثل دراسة شخصية "فاوست" التي ارتبطت بموضوع معين في الأساطير الألمانية، تمثلت في بيع فاوست نفسه للشيطان لقاء حصوله على الشباب والحياة والمعرفة.

فتمت دراستها كنموذج بشري في الأدب الألماني ثم انتقل هذا الموضوع إلى الأدب الفرنسي.

أما في أدبنا العربي فقد ارتبطت بعض الشخصيات في تراثنا الشعبي بمجموعة من المواضيع كارتباط شخصية "حاتم الطائي" بموضوع الكرم، وشخصية "عنترة بن شداد" بالشجاعة، وشخصية "كليوباترا" ملكة مصر التي ارتبطت بموضوع الجمال والإغراء عند الغرب، وعدت مثال للوطنية والتضحية في الأدب العربي.

ب. دراسة الأماكن

تندرج ضمن دراسة الموضوعات دراسة "الأماكن" التي وضع فيها الشعراء والكتاب شخوصهم، سواء أكانت إطارا طبيعيا، أم كانت بلدانا وحواضر ارتبطت بمواضيع وأحداث ذات قيمة تاريخية، أو دينية مثل: الأندلس، القدس...وغيرها.

ت. دراسة المواقف

قد يلجأ بعض مؤلفي القصص والمسرحيات أحيانا إلى عدد من المواقف العامة، إما لاحتوائها على حبكة قوية "كالبنت التي تزوجت قاتل أبيها" أو مؤثرة "كالرجل الذي فقد ظله"، وإما لأنها عالجت مشكلة أخلاقية كزنا المحارم في قصة "أوديب" الإغريقية، فيلجأ الباحث إلى إجراء مقارنة بين جميع الأدباء الذين عالجوا موقفا من المواقف شريطة أن يثبت تأثير الواحد في الآخر، وهذا ما يفيد في فهم تطور واختلاف المشاعر الإنسانية والمبادئ الأخلاقية لدى الشعوب والمجتمعات البشرية.

ث. دراسة الكتاب

هناك بعض الدراسات المقارنة اهتمت بدراسة "حظ بعض الكتاب المؤثرين" من الشهرة لتحديد تأثيرهم في الآداب بدقة، مثل تأثير شكسبير في المسرح بكامله، أو تأثير شخصية "غوته" الذي اشتهر بحبه الكبير للاطلاع على الثقافات المختلفة الشرقية والغربية.

يمكن في الأخير أن المدرسة الفرنسية عرفت بتعدد الموضوعات في حقل الأدب المقارن، فبين دراسة صورة أمة في أمة أخرى، إلى دراسة المواقف واختلافها بين الشعوب، إلى دراسة الشخصيات وكيف تم دراسته في أمة من الأمم، إلى دراسة المؤلفين الذين اشتهروا في أمم غير أمتهم.